الجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة عبد الحفيظ بالوصوف –ميلة–
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

المستوى: السنة الأولى ماستر
السداسي: السادس
المادة: تاريخ الأدب العربي –أعمال موجهة–
الأستاذ: سميرة بوجرة

الشعوبية وعلاقتها بالأدب

كتاب العصا للجاحظ: الرد على الشعوبية في طعنهم على خطباء العرب وملوكهم

ونبدأ على اسم الله بذكر مذهب الشعوبية ومن يتحلّى باسم التسوية وبمطاعنهم على خطباء العرب: بأخذ المِخصَرَةَ عند مناقلة الكلام ومساجلة الخصوم بالموزون والمقفى، والمنثور الذي لم يُقَفِ وبالأرجاز عند المتح، وعند مُجَاثَاة الخصم، وساعة المشاولة، وفي نقس المجادلة والمحاورة وكذلك الأسجاع عند المنافرة والمفاخرة، واستعمال المنثور في خطب الحمالة، وفي مقامات الصلح وسلِّ السخِيمة، والقول عند المعاقدة والمعاهدة، وترك اللفظ يجري على سجيته وعلى سلامته، حتى يخرج على غير صيغة ولا اجتلاب وتأليف، ولا التماس قافية، ولا تكلف وزن. مع الذي عابوا من الإشارة بالعصيّ، والاتكاء على أطراف القسيّ وخدِّ وجه الأرض بها (....) ولزومهم العمائم أيام الجموع ...

قالت الشعوبية ومن يتعصب للعجمية: القضيب للإيقاع، والقناة للبقّار، والعصا للقتال، والقوس للرّمي، وليس بين الكلام وبين العصا سبب، ولا بينه وبين القوس نسب، وهما إلى أن يشغلا العقل ويصرفا الخواطر ويعترضا على الذهن أشبه، وليس في حملهما ما يشحذ الذهن، ولا في الإشارة بهما ما يجلب اللفظ (.....) وحمل العصا بأخلاق الفدّادين

أشبه، وهو بجفاء العرب وعنجهية أهل البدو، ومزاولة إقامة الإبل على الطرق أشكل، وله أشبه.

قولوا: والخطابة شيء في جميع الأمم، وبكل الأجيال إليه أعظم الحاجة (....) وقد علمنا أن أخطب الناس الفرس وأخطب الفرس أهل فارس وأعذبهم كلاما وأسهلهم مخرجا وأحسنهم قولا (.....) قالوا: ومن أحب أن يبلغ في صناعة البلاغة، ويعرف الغريب ويتبحر في اللغة فليقرا كتاب كارُوَنُد. ومن احتاج إلى العقل والأدب والعلم (....) فلينظر في سير الملوك فهذه الفرس ورسائلها وخطبها، وألفاظها ومعانيها، وهذه يونان الحكماء بها تعرف السقم من الصحة، أو الخطأ من الصواب، وهذه كتب الهند في حكمها وأسرارها وسيرها وعللها (....) فكيف سقط على جميع الأمم من المعروفين بتدقيق المعاني، وتخير الألفاظ، وتمييز الأمور، أن يشيروا بالقنا والعصي والقضبان والقسي. كلاّ، ولكنكم كنتم رعاة بين الإبل والغنم، فحملتم القنا في الحضر بفضل عادتكم لحملها في السفر (...) ولطول اعتيادكم لمخاطبة الإبل، جفا كلامكم، وغلظت مخارج أصواتكم....

رد الجاحظ: وجملة القول أنّا لا نعرف الخطب إلا للعرب والفرس. فأما الهنود فإنما لهم معان مدونة وكتب مخلدة، لا تضاف إلى رجل معروف، ولا إلى عالم موصوف (....) ولليونان فلسفة وصناعة منطق، وكان صاحب المنطق نفسه بكيّ اللسان، غير موصوف البيان (.....). وفي الفرس خطباء إلا أن كل كلام للفرس، وكل معنى للعجم، فإنما هو على طول فكرة وعن اجتهاد رأي، وطول خلوة، وعن مشاورة ومعاونة (....) وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجالة فكر ولا استعانة وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام، وإلى رجز يوم الخصام، أو حين يمتح على رأس بئر (...) فتأتيه المعاني أرسالا وتنثال عليه الألفاظ انثيالا (...) وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلفون، وكان الكل م الجيد لديهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر، وله أقهر...

والدليل على أن أخذ العصا مأخوذة من أصل كريم، ومعدن شريف، ومن المواضع التي لا يعيبها إلا جاهل، ولا يعترض عليها إلا معاند، اتخاذ سليمان بن داود صلى الله عليه

العصا لخطبته وموعظته، ولمقاماته، وطول صلاته، ولطول التلاوة والانتصاب، فجعلها لتلك الخصال جامعة. قال الله عزّ وجل قوله الحق: ﴿فلمّا قضينا عليه الموت ما دلّهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلمّا خرّ تبيّنت الجنّ أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾ والمنسأة هي العصا.

البيان والتبين، ج 3، ص 5 ـ 30.

تحليل النص:

1. شرح المفردات:

-**الشعوبية:** نسبة غير قياسية إلى "الشعوب" وهم فريق من الناس الذين لا يرون للعرب فضلا على غيرهم، بل يبالغون في ذلك فيذهبون إلى تنقضهم والحط من قدرهم، حتى ألفوا في ذلك الكتب. وسموا بذلك لانتصارهم للشعوب، التي هي مغايرة للقبائل فقد قال جمع من المفسرين في قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل﴾: إن القبائل العرب والشعوب: العجم.

-**المِخصَرَة:** ما اختصر الإنسان بيده فأمسكه، من عصا أو عكازة أو قضيب.

- **المتح:** الاستسقاء من أعلى البئر.

-**المجاثاة:** الجلوس على الركبتين للخصومة.

-**المشاولة:** أن يتناول بعضهم بعضا عند القتال بالرمح.

-**الحمالة:** كسحابة: الدية يحملها قوم عن قوم.

-**سل السخيمة:** الأحقاد والأضغان.

- **الفدّادين:** الفداد: الجافي الصوت والكلام.

-**العنجهية:** الخشونة والغلظة.

-**كاروند:** كلمة فارسية مشكلة من جزأين، "كار" ومعناها الصناعة و"روند" ومعناها المديح والثناء.

2. الكلمات المفتاحية: الشعوبية؛ العرب؛ العجم؛ الفرس؛ العصا؛ البلاغة؛ التكلف؛ المطبوعين؛ اللفظ؛ المعنى؛ البديهة....

3. إشكالية النص: يطرح الجاحظ في هذا النص موضوع الشعوبية وهو تحامل بعض المولدين على العرب وعاداتهم وطبائعهم، ويعرض الجاحظ حجج هؤلاء ومن ثم يرد عليهم، ومن هنا يمكن طرح السؤال الآتي: ما علاقة الشعوبية بالأدب والبلاغة قديما؟

4. التحليل:

يمكن القول أن الحركة الشعوبية هي حركة ثقافية وحضارية نشأت بسبب تنوع الأعراق والأجناس في العصر العباسي، وتمّثلت في سعي كل عرق أن يحقق نوعاً من السبق والأفضلية على غيره، واتسعت لتشمل ألواناً من المفاضلات شملت الماضي والحاضر، ولكن جوهرها لم يتغير بوصفها حركة تمثل" تعصب كل شعب لقوميته وحضارته ضد العرب، وقد نجمت عن تعدد الشعوب التي ضمها المجتمع العباسي .لقد تآلف ذلك المجتمع من عرب وفرس وهنود وروم وزنج الخ ...وبما أن العرب يمثلون الأمة الحاكمة، لهذا اتجهت الشعوبية ضدهم، فحاول أبناء الشعوب الأخرى أن يثبتوا للعرب هوياتهم ووجودهم، ويبينوا لهم أنهم ليسوا أفضل من سائر الأمم ".

وقد تصدى للشعوبية كثير من المفكرين والأدباء ممن أدركتهم الغيرة على دينهم وثقافتهم ولغتهم العريقة، فأخذوا يفندون أقوال خصومهم الشعوبيين، ونتجت عن هذه المجادلات والردود حركة فكرية وأدبية أسهمت إسهاماً واسعاً في تطوير الحجاج والبلاغة التي تمثله أو تتصل به، مما يبرز في كثير من المصنفات والرسائل التي وضعت في القرن الثالث الهجري على وجه الخصوص.

ومن أبرز النصوص التي وصلتنا في الرد على الشعوبية، ردود الجاحظ، وابن قتيبة، وهما قطبان من أقطاب الأدب والفكر في زمانهما، وقد حصرا همهما في الدفاع عن العرب دون

الإساءة إلى الشعوب الأخرى، ودون الوقوع في مشكلة المنطلق العرقي الذي وقعت فيه الشعوبية.

والنص الذي بين أيدينا، يبين كيف عمل الجاحظ على درء مزاعم الشعوبيين، وفي خضم رده على هؤلاء وما أعابوه على العرب من حمل العصا في خطبهم، تطرق إلى مسائل مهمة تخص الأدب، فتحدث عن قضايا أصبحت فيما بعد محاور كبرى في النقد العربي القديم كمسألة اللفظ والمعنى ومسألة الطبع والصنعة، والبديهة والارتجال والإلهام والبلاغة والبيان. ورأى أن العرب تتميز عن سائر الشعوب بطبعها الذي مكنها من السمو بالخطابة إلى أعلى المراتب. فالفصاحة والبلاغة عند العرب إلهام وبديهة لا تكلف وتصنع، والطبع _حسب الجاحظ_ يعني الاسترسال في المعاني والانثيال في الألفاظ، وذلك في النثر والشعر، فكل شيء للعرب بديهة وارتجال وليس مكابدة وتكلف وصناعة، كما هو الشأن عند الفرس وغيرهم من الأقوام.

وبهذا يكون الجاحظ قد بين أهم أسس الأدب (الشعر والنثر) عند العرب من خلال رده على الشعوبيين.